

نظرية ما بعد الحداثة ومدى مساهمتها في التنظير

للعلاقات الدولية

الطالب الباحث: بوقريطة بدر الدين

طالب دكتوراه الطور الثالث، تخصص: دراسات دولية

قسم العلوم السياسية، جامعة جيجل، الجزائر

مخلص: تتموقع نظرية ما بعد الحداثة في قلب المحاور الثلاثة بين كبريات منظورات العلاقات الدولية، وذلك باعتبارها المقاربة الرئيسية ضمن المقاربات التأملية التي طعنت في الأسس الفلسفية، الإبيستيمولوجية والمنهجية التي قامت عليها النظريات التفسيرية في حقل العلاقات الدولية - وبخاصة النظرية الواقعية-، ساعية بذلك إلى تقويض وهدم الحقل النظري للعلاقات الدولية برمته، وإعادة بنائه من جديد بما يتوافق مع توجهاتها المناهضة والمناقضة للوضع. وإنطلاقا من ذلك سعت هذه الدراسة للبحث في فحوى نظرية ما بعد الحداثة ومدى مساهمتها في التنظير للعلاقات الدولية. وقد كان التوجه نحو تأكيد أن قيام نظرية ما بعد الحداثة على نقد الأطر الإبيستيمولوجية للطروحات التقليدية هو مسعى لفهم وتفسير أفضل لظواهر العلاقات الدولية. وكذلك إبراز أن انشغال ما بعد الحداثة بالتأمل في عملية التنظير للعلاقات الدولية، جعل اهتمامها محصورا في ما وراء النظرية بدلا من النظرية.

Résumé : La théorie du post-modernisme se positionne au cœur du troisième débat entre les grands paradigmes des Relations Internationales, dans la mesure où elle constitue la principale approche réflexive qui remet en cause les fondements philosophiques, épistémologiques et méthodologiques sur lesquels se sont fondées les théories explicatives en Relations Internationales, notamment la théorie réaliste. Ainsi, elle vise à réduire à zéro tout le champ théorique des Relations Internationales et à le reconstruire à nouveau de façon à ce qu'il corresponde à ses prémisses qui contredisent le positivisme. A partir de là, cette étude vise à explorer le contenu de la théorie post-moderniste et sa contribution dans l'effort de théorisation en Relations Internationales. La tendance à fonder la théorie post-moderniste sur la critique des cadres épistémologiques des théories traditionnelles constitue une tentative pour une meilleure compréhension et explication des relations internationales. Cette tendance à se préoccuper par la réflexion dans l'effort de théorisation en Relations Internationales laisse présager qu'elle est dans la métathéorie plutôt que dans la théorie.

مقدمة

خلال مسار التطور التنظيري لحقل العلاقات الدولية الهادف إلى بلوغ نظرية كوسموبوليتانية، ومن ثم نظرية عامة للعلاقات الدولية تضبط وترسم الحدود المعرفية لهذا الحقل، وتحد من أزمة التنظير في حقل العلاقات الدولية، لاحظ الجميع ذلك النجاح الباهر للواقعية وكذا قدرتها على التأقلم والتكيف مع المستجدات في كل حقبة زمنية. فقد أدى قيام الحرب العالمية الثانية إلى خروج الواقعية في أولى سجلاتها النظرية الكبرى منتصرة وضاحدة لمقولات المثالية. كما استطاعت الواقعية ذاتها وفي عقد الخمسينيات والستينيات أن تتجاوز بسلام الجدل المنهجي الذي خاضته قبالة السلوكية في ثاني كبريات المحاورات بين المنظورات. إلا أنه وفي الوقت الذي ظن العديد من الدارسين بأن النقاش النظري الثالث قد حسم لصالح النيواقعية، جراء تراجع النيولبرالية إلى مجرد واقعية ناعمة، وانحسار الطروحات النيوماركسية وأقولها، بينت تحولات وتغيرات عالم ما بعد الحرب الباردة بأن هذا النقاش ذو الطبيعة الإبيستيمولوجية أخذ منحى آخر، بحيث أصبحت الواقعية بكل تطوراتها وتنوعاتها مجرد طرف في معسكر الوضعيين التفسيريين، وتخوض مواجهة معرفية ضد تيار التأملية التكوينية المتبني لطروحات ما بعد وضعية ونزعة ما بعد تجريبية.

وفي قلب النقاش النظري الثالث - سالف الذكر - تتموقع ما بعد الحداثة، إذ تعتبر المقاربة الرئيسية ضمن المقاربات التأملية التي طعنت في الأسس الفلسفية، الإبيستيمولوجية والمنهجية التي قامت عليها النظريات التفسيرية في حقل العلاقات الدولية، وبخاصة النظرية الواقعية، ساعية بذلك إلى تقويض وهدم الحقل المعرفي للعلاقات الدولية برمته، وإعادة بنائه من جديد بما يتوافق مع توجهاتها المناهضة والمناقضة للوضعية. وعلى هذا الأساس كانت الإشكالية الرئيسية التي سنعالجها في هذا البحث هي المصاغة في السؤال الرئيسي التالي:

ما فحوى نظرية ما بعد الحداثة؟ وما مدى مساهمتها في التنظير للعلاقات الدولية؟

وبمعية هذا السؤال الرئيسي هنالك مجموعة من التساؤلات الفرعية تستوجب الإجابة

من قبيل:

- ما المقصود بما بعد الحداثة؟

- ما هي الأسس الإبستمولوجية والمنهجية التي تقوم عليها؟

- ما هي الإسهامات التي قدمتها ما بعد الحداثة للتنظير في حقل العلاقات

الدولية؟

وكإجابات مفترضة للإشكالية نقدم الفرضيتين التاليتين:

1- تقوم نظرية ما بعد الحداثة على نقد الأطر الإبستمولوجية للطروحات التقليدية من أجل فهم وتفسير أفضل لظواهر العلاقات الدولية.

2- لما انشغلت ما بعد الحداثة بالتأمل في عملية التنظير للعلاقات الدولية، بقي اهتمامها محصورا في ما وراء النظرية بدلا من النظرية.

المحور الأول: البناء الفكري لنظرية ما بعد الحداثة

سيتم في هذا المحور، تتبع البناء الفكري لنظرية ما بعد الحداثة على المستويات الثلاث، أنطولوجيا، إبستمولوجيا ومنهجيا.

أولا: المستوى الأنطولوجي

يهدف الإقتراب أنطولوجيا من نظرية "ما بعد الحداثة" إلى إزالة الغموض المفاهيمي والدلالي المتعلق بهذه النظرية، وذلك انطلاقا من المفهوم الأساس (ما بعد الحداثة) الذي يلفه الكثير من الغموض، وتختلف دلالاته من مفكر لآخر. وكما يقول الباحث علي وطفة فإن المفكرون غالبا ما يحاصرون المفاهيم الجديدة بإيقاعات تصوراتهم الفكرية. ولأن مفهوم "ما بعد الحداثة" ليس استثناء، نجد أنه قد تشعب بتصورات وحدود عدد كبير من المفكرين العمالقة، الذين وظفوا هذا المفهوم في منظوماتهم الفكرية. ومن هذه الزاوية نجد حالة من التنوع والاضطراب في تحديد هذا المفهوم بصورة واضحة وجلية.⁽¹⁾ فالمفهوم بطبيعته الخلاقية يثير العديد من الإشكالات وعلى مستويات مختلفة.

1- الإشكالات اللغوية:

تعد الإشكالات اللغوية أولى الإشكالات التي يطرحها مصطلح "ما بعد الحداثة"، فالمصطلح مركب من لفظتين، "ما بعد Post" و "الحداثة Modernism"، ودراسته لغويا تتطلب العودة إلى اشتقاقاته الإيتيمولوجية في العربية واللاتينية. فبالنسبة للعربية فقد جاء في لسان العرب لمؤلفه ابن منظور "بَعْدُ: ضِدُّ قَبْلٍ... وهي كلمة دالة على الشيء الأخير، نقول: هذا بَعْدَ هذا"⁽²⁾، والمعنى المراد هنا هو التالي والتواتر. وأما "الحداثة" فمصدرها - حسب لسان العرب - هو الفعل: حَدَثَ . "حدث الشيء يحدث حدثاً وحدثاً، وأحدثه هو، فهو محدثٌ وحديثٌ، وكذلك استحدثه". ومن هذا المصدر -أي الفعل حدث - تشتق ألفاظ دالة على معاني الكلام والخطاب، والحدوث بمعنى وجود الشيء بعد أن لم يكن، كما يشق من ذات المصدر ما يدل على معنى الزمان ويتصل بالمعنى الوجودي، ذلك أن حدوث الشيء يحمل بعدا زمانيا، وحدثه يكون في آن وفي وقت معين، سواء أكان متوقعا أو مفاجئا ومنه يكون منشؤه وميلاده في اللحظة التي يحدث فيها⁽³⁾.

بالنسبة للغات اللاتينية لفظ "post"، مأخوذ من اللفظ اللاتيني "post" بمعنى "وراء، عقب، أو بعد ذلك"، ولعله مشتق من اللفظ الإغريقي apo، بمعنى "بعيد عن away from".⁽⁴⁾ أما مصطلح الحداثة modernity فيجد أصوله في لاتينية العصور الوسطى (عقد 1620) من لفظ modernitatem،⁽⁵⁾ وهو إسم النوع "noun of quality" للفظ من لاتينية القرن الخامس ميلادي modernus الذي ورد لأول مرة في كتابات اللغوي اللاتيني الشهير بريسكيان Priscian بمعنى "الحديث"، والمشتق بدوره من اللفظ اللاتيني القديم modo بمعنى "الآن فقط، just now".⁽⁶⁾ وأما اللاحقة "ism" فهي حسب الباحث أياد أحمد عنبر تضاف إلى نهاية الإسم أو الفعل لتكون اسما دالا على نتيجة أو عملية الفعل أو على الأفكار والمعتقدات الاجتماعية أو السياسية أو الدينية أو طريقة التصرف والسلوك.⁽⁷⁾ كما أنه ومن بين المعاني التي قد تضيفها اللاحقة "ism" على الإسم -حسب قاموس "المورد الحديث" الصادر عام 2009-، معنى المذهب أو العقيدة.⁽⁸⁾

وعلاوة على الإشكالات اللغوية السابقة التي يثيرها مصطلح ما بعد الحداثة هنالك تلك المتعلقة بالترجمة، إذ يعد وجود مقابل للفظ modernism في اللغة العربية مسألة معقدة، ولعل ذلك راجع لحقيقة أن اللاحقة "ism" - المستخدمة في اللغة الإنجليزية للدلالة على فلسفة أو أيديولوجية معينة - لا وجود لها في اللغة العربية.⁽⁹⁾ فقد ترجم قاموس

المورد الحديث لفظ **modernism** بلفظ **العصرانية** وهي حسب القاموس ذات معنيين: أولهما أنها "النزعة اللاهوتية المتحررة وبخاصة في البروتستانتية"، وأما ثانيهما فهي أنها "نزعة في الفن الحديث تهدف إلى قطع الصلات بالماضي والبحث في أشكال من التعبير جديدة".⁽¹⁰⁾ وكما هو الشأن بالنسبة لمصطلحي الحداثة **Modernism** و **Modernity** وإشكال ترجمتهما إلى العربية سواء أكان ذلك إلى **الحداثة والحداثيّة** أم إلى **العصرية والعصرانية**. فغالبا ما يحدث نفس الشيء في استخدام كلمتي **Postmodernism** و **Postmodernity** بنفس المعنى، وحتى في ترجمتهما إلى العربية نجد لفظا واحدا هو "ما بعد الحداثة" يتداول ليدل على الكلمتين الأجنبيتين، علما بأن بعض من ترجموا الكلمتين أطلقوا لفظ **ما بعد الحداثة** على **Postmodernity** ولفظة **ما بعد الحداثيّة** على **Postmodernism** كنوع من التمييز بينهما.

لقد ارتأينا في هذا البحث أن نساير **تيري إيغلتن Terry Eagleton** لما يرى أن مصطلح **ما بعد الحداثة Postmodernity** يشير إلى مرحلة تاريخية مخصوصة، أما مصطلح **ما بعد الحداثيّة Postmodernism** فيشير بصورة عامة إلى شكل من أشكال الثقافة المعاصرة مع أنه يصرح بعدم مراعاته لهذا التمييز في استخدامه للمصطلحين . ولعل ذلك لا يختلف عن وجهة **مادن سرروب Madan Sarup** لما حاجج بأن **ما بعد الحداثيّة** هي ثقافة **ما بعد الحداثة** بمثل ما أن **الحداثيّة** ثقافة **الحداثة**.⁽¹¹⁾

2- الإشكالات الجنبولوجية:

إن خلافة مصطلح **ما بعد الحداثة** امتدت من لغويته إلى جنبولوجته، وبدايات ظهوره واستعماله، إلا أنه سيتم في هذا البحث اعتماد القول بظهور مصطلح **ما بعد الحداثة Postmodernism** لأول مرة في أعمال الفنان البريطاني **جان تشابمان Jean Tshapman** سنة 1870، كما وظف مرة أخرى من طرف **رودولف بانفيز Rodolf Banfes** سنة 1917، ثم أخذ المصطلح حيّزا أكبر من التداول وبرز بوضوح في كتاب **"أنطولوجيا الشعر الإسباني والإسباني أمريكي"** للكاتب **فيديريكو دي أونيس Fidirico de Aunis** سنة 1934، في عمل أدبي يعبر عن رد فعل ثانوي على الحداثة. وبذلك مثلت تجليات المصطلح في تلك الفترة تحديا لنزعة الحداثة، خاصة وأنه وجد في الولايات المتحدة

الأمريكية مجالا منقحا لتطوره مع ظهور النزعة الجديدة في فن العمارة بصفة خاصة، لما له من معنى في تحول المجال الاجتماعي فيما بعد.⁽¹²⁾

في سنة 1947 تناول المؤرخ البريطاني **آرنولد توينبي Arnold Twenbi** المصطلح ليعبر به على ثلاث صفات رآها تميز الفكر والمجتمع الغربيين منتصف القرن العشرين وهي: اللاعقلانية، الفوضوية، اللامعيارية، وهذه صفات كانت نتاج عدم تمكن الطبقة البورجوازية من التحكم في تطور الرأسمالية منذ نهاية القرن التاسع عشر، وحلول الطبقة الصناعية العاملة محلها.⁽¹³⁾

ومع بداية الخمسينيات، بدأ استعمال المفهوم كمرادف فني للفلسفة الوجودية التي تؤكد على المبادرة الفردية، وتجعلها قادرة على الخروج عن النسق التقليدي، ليتطور بعد ذلك استعمال المصطلح إلى مجالات أخرى، إذ أخذ مكانه في التداول الأدبي والفني تجاوزا لسطحية حركة النقد الأدبي الحداثي. ومع ذلك بقي ميدان العمارة المجال النموذجي لتطور مصطلح ما بعد الحداثة بشكل واضح، إذ كان للمعماري الأمريكي **تشارلز جينكز Charles Jencks** دور كبير في بلورة المفهوم مطلع السبعينات لما عارض فكرة التقدمية في الهندسة المعمارية الحداثي في الهندسة المعمارية الحداثي المتميزة بالتقديس الوظيفي للمنشآت والبناءات المستقبلية التي أحدثت قطيعة مع الماضي وعملت على تجاهل التاريخ. حيث أن فكرة التقدمية كانت قد قصت على كل ما هو تقليدي دونما محاولة دمج الماضي مع الحاضر والمستقبل في مجال لا يكون بالضرورة متجانسا.⁽¹⁴⁾

وعلى الرغم من انتقال مفهوم ما بعد الحداثة إلى مجالات معرفية أخرى، إلا أن معانيه ودلالاته لم تكن محددة وواضحة، فضلا عن تعدد القراءات المقدمة من قبل المفكرين والمتقنين الذين بادروا إلى استعماله في مجالات عديدة من التاريخ والحضارة، إلى الفلسفة وعلم الاجتماع والنقد الأدبي. غير أنه ومنذ 1979 لما نشر **جان فرانسوا ليوتار Jean-François Lyotard** كتابه المعنون: "الوضع ما بعد الحداثي **La condition postmoderne**"، أصبح منذ ذلك الوقت مرجعا ونموذجا في الكتابات ما بعد حداثي، إذ أحدث المفهوم الذي جاء به **ليوتار** حول النظريات الشاملة ثورة كبيرة في مجال العلوم ومدى مصداقيتها وقدرتها على التفسير، هذا الطرح الذي تأسس حوله نقاش في الميدان السوسيو -

سياسي أين غدا يورجين هابرماس **Jurgen Habermas** وابتداء من سنة 1980، هو المحاور والخصم لـ ليوتار من خلال المحاضرة المعنونة: "الحداثة: مشروع غير مكتمل" والتي ألقاها هابرماس في 11 سبتمبر 1980 عند تسلمه لجائزة أدورنو وبدا فيها هابرماس مدافعا عن صلاحيّة الحداثة لاسيما وفق ما تحدد مع المنظرين النقديين لمدرسة فرانكفورت". (15)

وفي خضم الإنتشار الواسع لمفهوم ما بعد الحداثة لم يكن حقل العلاقات الدولية استثناء، إذ اقتحمته الرؤى ما بعد الحداثيّة في أواخر ثمانينات القرن العشرين، وذلك بمناسبة ما عرف بالمحاورّة الثالثة في العلاقات الدوليّة (16)، وقد ارتبطت ما بعد الحداثة الدوليّة بأعمال منظرين نافذين مثل ريتشارد آشلي **Richard Ashley**، وجيمس دير ديريان **James DerDerian**، ودايفيد كامبل **David Campbell**، وساميمون دالبي **Simon Dalby**، ومايكل شابيرو **Michael Shapiro** وغيرهم، حيث جاءت في سياق عام تميز بتعقيد الظروف السياسيّة، مثل: انتهاء الحرب العالميّة الثانيّة وولوج الحرب الباردة، انتشار السلاح النووي، إعلان ميلاد حقوق الإنسان، ظهور الفلسفات اللاعقلانيّة كالسرياليّة والوجوديّة والفرويديّة والعدميّة... وقد مثلت الفلسفة التفكيكيّة التي جاء بها جاك دريدا جسر الإنتقال والعبور من فلسفة الحداثة إلى فلسفة ما بعد الحداثة. ومن ثم فقد كانت فلسفة ما بعد الحداثة - في الجزء الأكبر منها - مفهوما مناقضا ومدلولا مضادا للحداثة. (17)

3- الإشكالات الدلاليّة:

ومن خلافيّة ظهور المصطلح وتطوره إلى خلافيّة مفهومه ودلالاته، إذ يرى الباحث التركي المختص في العلاقات الدوليّة إلنر حسن مكاييل **Elnur Hasan MIKAIL**، بأنّه جراء عدم استقرار الأوضاع السياسيّة الدوليّة في الثمانينات بسبب بداية تفكك نظام توازن الرعب الذي ظهر في فترة ما بعد الحرب العالميّة الثانيّة، برز الشعور بـ "الجديد **new**"، ولأنّه كان هناك نقص في المصطلحات لوصف ما يحصل، تمّ توظيف مصطلح "ما بعد الحداثة"، إلا أن هذا المصطلح المستخدم لوصف "الجديد **new**" بقي غامضا جدا. (18)

ويشير الناقد الأمريكي ذو الأصول المصرية إيهاب حسن Ihab Hassan، إلى صعوبة تحديد مفهوم ما بعد الحداثة، ولكنه مع ذلك يقدم مجموعة من التصورات العلمية التي يمكنها أن تشكل العناصر الأساسية في بنية هذا المفهوم ومنها: (19)

- إن لفظ ما بعد الحداثة يوحي بفكرة الحداثة وهو بالتالي يتضمن بعد التوالي الزمني للعلاقة بين المفهومين.

- لا يوجد إجماع بين النقاد على تعريف واضح لمفهوم ما بعد الحداثة.

- مفهوم ما بعد الحداثة عرضة كغيره للتغير والضرورة التي نلاحظها في المفاهيم الوليدة حديثاً.

وفي ذات السياق يجادل ريشارد ديفتاك Richard Devetak أن تحديد معنى "ما بعد الحداثة" هو قضية خلافية، ليس فقط بين مؤيدي هذا التيار الفكري ونقاده أو معارضيه، بل وبين معتقيه في حد ذاتهم. (20) ولعل مصدر الضبابية التي تلف مفهوم ما بعد الحداثة هو استخدام الباحثين للمصطلح حسب الفهم الخاص لما يعنيه اللفظ اللاتيني "الحديث modern " مسبقاً باللاحقة "بعد post"، مما جعل الجدل قائماً حول انفصال "الما بعد" عن "الحديث" والقطيعة معه، أم أنها استمرار له.

وقد ورد في قاموس ويبستر Webster بأن مصطلح "بعد الحداثة" يشير إلى حقبة العصر بعد الحديث أو الحركات الصاعدة كرد فعل على الحداثة والتي تتضمن إعادة نظر جذرية في الفرضيات الحديثة حول الثقافة، والهوية، والتاريخ، أو اللغة. ويقترب هذا المعنى من التعريف القياسي الذي قدمه جان فرونسوا ليوتار Jean-Francois Lyotard عندما عرف ما بعد الحداثة على أنها "جحود لما بعد السرديات"؛ يعني الجحود ببساطة الشك، وتعني "ما بعد السرديات metanarrative " التأكيد بأن النظرية تمتلك أسساً واضحة لصياغة ادعاءات المعرفة التي تتطوي على إستمولوجيا تأسيسية Foundational. (21)

وفي ذات المعنى تقريبا، يصف ستيف سميث **Steve Smith** ما بعد الحداثة بأنها تهتم بشكل أساسي بتفكيك ورفض الوثوق بأي وصف للحياة الإنسانية يدعي أنه يصل مباشرة إلى الحقيقة، فهي بنظره قطيعة تامة مع كل أشكال الإدعاءات المعرفية السابقة، التي تجادل بأنها تحوز على الحقيقة أو جزء منها بفضل المناهج التي أنتجتها فلسفة الحداثة (المنهج العلمي كطريق أوجد للعلم والمعرفة). في المقابل يرى **ديك هيدايك Dik Hebding** بأن "ما بعد الحداثة هي الحداثة الخالية من الأحلام والآمال التي مكنت البشر من تحمل الحداثة"، بمعنى أن ما بعد الحداثة تجمع بين نقد وإصلاح الحداثة.⁽²²⁾ أما الفيلسوف الفرنسي **ميشال فوكو Michel Foucault** فيرى بأن ما بعد الحداثة كمرحلة جديدة للفكر الإنساني، يمكن تعريفها على أنها "مرحلة تهدف إلى تغيير قيم التجانس العالمية، والقيم المؤسسة لمفهوم الجماعة والتنوع والتعارض". هذا التغيير نجم عنه لا محدودية المعنى والحقائق والعوالم باختلاف القراءة لهذه الحقائق والمعلومات المتوفرة حولها.⁽²³⁾

وإجمالا يمكن تبني ما قاله الدكتور **محمد الطاهر عديلة** بأن ما بعد الحداثة هي مرحلة من مراحل تطور الفكر الغربي الحديث، تلي مرحلة الحداثة، كما تعبر عن حركة وفلسفة ديناميكية، ترفض الدوغماتية والأنساق المعرفية المغلقة التي فرضتها فلسفات الحداثة. وأما بعد الحداثة كنظرية في حقل العلاقات الدولية فهي تقوم -حسب الباحث **سيد أحمد قوجيلي-** على التزام أخلاقي تعتقد أنه كان مفقود في تخصص العلاقات الدولية كنتيجة لانتقائيتها في الاقتباس من النظرية السياسية. ولهذا السبب هي لا تشير لنفسها كمدرسة جديدة في العلاقات الدولية لأنها ترفض فكرة مشروع بناء نظرية تدعي أو تحتكر حق وشرعية إنتاج المعرفة الدولية.⁽²⁴⁾

ثانيا: المستوى الإيستيمولوجي

في هذا المستوى سيتم معرفة كيف تؤسس نظرية ما بعد الحداثة، تثبت، تبرر وتضفي الشرعية على بياناتها حول مختلف ظواهر العلاقات الدولية، إذ يعلن المفكرون ما بعد الحداثيون بكل وضوح رفضهم التام للإيستيمولوجيا الوضعية والمناهج التجريبية التي قدمتها الفلسفة الحداثية، ويتبنون بالمقابل توجهها إيستيمولوجيا ضد تأسيس **Anti-Foundationalist** يرفض وجود معايير ثابتة يمكن اعتمادها كمرجعية لقياس صحة أو

خطأ الإدعاءات المعرفية.⁽²⁵⁾ ويمكن محورة إبيستيمولوجيا ما بعد الحداثة حول أسس ثلاث: الحقيقة تبنى باللغة، القوة ترتبط بالمعرفة، وجوب الإهتمام بما وراء السرديات.

1- الحقيقة تبنى باللغة:

يقف ما بعد الحداثيون موقفا عدائيا اتجاه الإدعاء بوجود حقيقة مطلقة أو عالمية. فباعتقادهم لا يمكن أبدا معرفة أي شيء بشكل يقيني، ولا توجد حقيقة خارجية مستقلة عن آرائنا واللغة التي نستعملها للتعبير عن هذه الآراء، لأن اللغة ليست معطى موضوعيا، بل تعكس نسخة الواقع الذي يتحدث عنه المتكلم، فاللغة هي معطى إجتماعي، وبالتالي فالألفاظ ليست لها قيمة خارج السياق الإجتماعي الذي تعرف وتستعمل فيه. والنتيجة لا يوجد واقع أو عالم موضوعي.⁽²⁶⁾

فالسؤال عن الحقيقة حسب ما بعد الحداثيين سؤال ميثافيزيقي، والسؤال ما الحقيقة؟ هو كالسؤال ما الإله؟. لأجل ذلك يرى جاك دريدا Jacques Derrida أنه لا يوجد شيء يسمى الحقيقة في حد ذاتها أو حقيقة كلية، وإنما هنالك حقائق منفصلة.⁽²⁷⁾ كما أنه ليس هناك "حقيقة" يجب أن يقر بها الجميع، وليس هنالك حق مطلق، ومن غير المقبول إقصاء الآراء الأخرى. فالحقيقة تكوينية تأملية، وتصنع من خلال اللغة وفي داخل ذهن الإنسان لوحده. وبالتالي فما يقال عن التقدم أو التطور الذي رافق "الحداثة" أو الذي تدعو إليه ليس إلا خرافة، وما يقال عن قدرة العقل على "اكتشاف" الحقيقة إنما هو وهم. فالحقيقة لا تكتشف، لأنه لا توجد حقيقة أصلا، وإنما الحقيقة "تخلق" (فالعالم ليس معطى مسبق كما تدعيه الوضعية). وبالتالي فما بعد الحداثة تتقاسم مع النقدية الإجتماعية أحد أهم فروعها وهو أن الإنسان هو من يخلق حقائقه. فالأفكار حسب ما بعد الحداثيين ليست انعكاسا للواقع بل قراءة له، وهي قراءة صيغا أسطورية وإيديولوجية ودينية ونظرية.⁽²⁸⁾

2- رابطة القوة والمعرفة:

يؤكد ما بعد الحداثيين على الارتباط القوي بين المعرفة والقوة. ويعارض ميشال فوكو بشدة المفهوم المهيمن في النظريات العقلانية والوضعية الدال على أن المعرفة ممتعة ومحصنة ضد طرق عمل القوة. ففي كتابه النظام والعقاب: ولادة السجن Discipline

and Punish : The Birth of the Prison يشرح فوكو نظريته عن القوة فيقول: "إن علوم الجريمة والطب والنفس والإجتماع... وغيرها من العلوم الإنسانية، تنتج آليات (Techniques) وفنونا للمراقبة والفحص والتصنيف (Sorting) وصياغة الأفراد وتطويرهم وتطبيعهم (Normalizing) وفقا لأنظمتها المعرفية".⁽²⁹⁾ وفوكو بذلك يجادل بأن القوة تنتج المعرفة، وكل قوة تحتاج إلى المعرفة، وكل معرفة تعتمد وتتعرز بعلاقات القوة الموجودة. وبالتالي لا وجود لأي شيء كحقيقة منفصلا عن القوة. وحول ذلك يضيف فوكو: "كيف يمكن للتاريخ أن يكون له حقيقة إذا كانت الحقيقة لها تاريخ". فالحقيقة ليست شيئا موجودا خارج الأوضاع الإجتماعية بل هي جزء منها.⁽³⁰⁾ فليس هنالك أي شيء يسمى "حقيقة" -أو معرفة يقينية- يوجد خارج حدود القوة. فالمعرفة والقوة كما يقول الأستاذ عبد الناصر جندلي "مفهومان بديلان عن مقولة المادة في الفلسفات المادية في عالم لا قوانين له، ولا يحركه شيء سوى دينامية كامنة فيه ونابعة منه".⁽³¹⁾

3- ما وراء السرديات:

تعد ما بعد الحداثة بمثابة رد فعل قوي على الحداثة وطريقتها في معرفة العالم وحقيقته، وبذلك فإن من بين سماتها الرئيسية التأكيد على نهاية زمن التصورات العامة حول العالم أو السرديات الكبرى **meta-narratives** ، وتولي عصر النظريات الكلية (مثل الواقعية الدولية) وبناء الأنساق الجامعة، خصوصا بعد إفلاس العديد من هذه السرديات والنماذج الابستمولوجية الكلاسيكية، وتجلي الطابع التسلطي الهيمني للنظريات الكلية وانكشاف "إرادة القوة" التي تسيروها.

ويرى أنصار بعد الحداثة أن الأسلوب الرئيسي الذي يستخدمه التقليد الوضعي الواقعي هو ادعاء المعرفة دون تمحيص من أجل دعم موقعه المهيمن في النظام المبني على العديد من السرديات . فالسرد على النحو الذي اقترحه فرونسوا ليوتار، هو الوسيلة لإضفاء الشرعية على المعرفة عبر التاريخ. ووفقا لليوتار، الشكل السائد للرواية منذ القرن التاسع عشر ولد مع المثالية الألمانية، التي تفترض أن هنالك حقيقة أساسية ترتكز عليها جميع المعارف، وأن واجب وحق البشرية هو اكتشاف هذه "الروح". ويرى ما بعد الحداثيين

أن الواقعيين في العلاقات الدولية، مثل جميع الباحثين الغربيين، يلتزمون بهذه الفلسفة بغرض إضفاء الشرعية على المعرفة. (32)

يشير فيليب كروز دورنس Felipe Krause Dornelles أن السرد الرئيسي للتقليد الواقعي هو المنسوب مباشرة من ثيوسيديدز Thucydides إلى مكيافيلي Machiavelli وبعد ذلك من خلال هوبز Hobbes وغيرهم من الفلاسفة السياسيين المهمين لعصر التنوير (33). وحسب ما يراه دورنس ، فالاعتماد مثلاً على تفسير ثوسيديس لمشاكل الأمن بين المدن اليونانية من أجل تفسير القضايا الدولية المعاصرة يهمل أهمية الهوية التي كانت أساسية في اليونان القديمة. فمبادئ تشكيل الأمم الحديثة في القرن العشرين قريبة من كتابات ماكس WEBER أكثر من ثوسيديس. هذا ما يجعل أفكار ثوسيديس ليس لها علاقة بالشؤون الدولية المعاصرة، لأن سيادة الدولة كما هي معرفة في نظام الدولة الحالي لم تكن واضحة في اليونان الكلاسيكية. (34)

كذلك بين والكر أن سياسة ميكيافيلي (على نقيض القراءة الكاريكاتورية التقليدية) كانت مهتمة في الغالب بفكرته عن الأخلاق والتي اشتهرت في كتاباته بالفضيلة Virtù. لقد كان ميكيافيلي مهتم بالجماعات السياسية ومزايا المواطنة الجيدة ضمن السياق الكلاسيكي للمدينة. طبقاً لـ واكر ، فضيلة ميكيافيلي في كتابه "المدينة POLIS" تم استثنائها من القراءات التقليدية التي راحت تؤكد فقط على السمة العسكرية المتعلقة بسياسة القوة. وفي رأيه، خلق تفضيل الواقعية الاعتباري للقراءة العسكرية على قراءة الفضيلة صورة خاطئة لـ ميكيافيلي بوصفه "عقري شريك للسياسة الواقعية". (35)

ثالثاً: المستوى المنهجي

استخدم الباحثون ما بعد الحداثيون مناهج بحث بديلة ومتنوعة، ليس من أجل بناء نظريات تفسر وتفهم الواقع الموجود، ولكن من أجل تقويض وتفكيك النظريات القائمة، وتبيان كيف أنها مركزة حول الذات والقيم الفردية الغربية، وكيف أنها إقصائية ترفض مفاهيم التعدد والإختلاف والضرورة. ومن أهم هذه المناهج والأدوات البحثية: التناس، التفكيكية، القراءة المزدوجة والجينبالوجيا.

1-التناص:

تعتبر الإستراتيجيات النصية (التناص Intertextuality) إحدى النقاط المشتركة لأنصار بعد الحداثيّة الدوليّة في سرد وبناء وتفكيك الحقيقة. (36) ولا يمكن عزل فكرة التناص، في أصلها، عن الأعمال النظرية لجامعة "تيل كيل Tel Quel" ومجلتها الحاملة لاسمها*. ويرجع الفضل لـ **جوليا كريستيفا Julia Kristeva** في إدخال مصطلح التناص للدلالة على ما يقارب مفهوم الحوارية عند الناقد الروسي **ميخائيل باختين Mikhael Bakhtine**، وما لبث أن تناوله بعدها عدد كبير من النقاد بالإضافة والتعديل. ويرى **باختين** في حواريته بأن "كل نص يقع عند ملتقى مجموعة من النصوص الأخرى؛ يعيد قراءتها ويؤكدّها ويكتفها ويحولها ويعمقها في نفس الوقت". (37) وفي ذات النسق من التفكير تعرف **كريستيفا** التناص بأنه "جملة المعارف التي تجعل من الممكن للنصوص أن تكون ذات معنى. وما أن نفكر في معنى النص باعتباره معتمدا على النصوص التي استوعبها وتمثلها فإننا نستبدل بمفهوم تفاعل الذات مفهوم التناص"، فالتناص بذلك هو ثورة على منظور النقد التقليدي، حيث كان يتم قصر فعالية القارئ على فهم وإدراك ما هو موجود سلفا من معان في النصوص. حيث أن النص من منظور التناص صادر عن ذات وليس عن ذات واحدة، وهو يخضع لعملية تفاعل داخلية بعد أن يحسم مع كل المرجعيات السابقة، بما فيها المؤلف نفسه. (38)

2-التفكيكية:

يركز **التفكيك "Deconstruction"** على فكرة أن المفاهيم والعلاقات داخل اللغة وإن بدت ثابتة فإنها في الحقيقة تراكمات اصطناعية **Artificial Constructs**، فهي مرتبة هيراركية في حالة متضادات لغوية، حيث أن تعبيراً معيناً دائماً ما يميز عن بقية التعبيرات الأخرى. وبالتالي، فإن التفكيك هو طريقة لإظهار كيف أن كل النظريات والخطابات تعتمد على استقرارات اصطناعية **Artificial Stabilities** نتجت عن استعمال المتضادات الطبيعية والموضوعية. (مثل جيد-رديء، عام-خاص، صواب-خطأ). (39)

فالتفكيكية (أو القراءة الهدامة) هي تلك التي تبحث عن "التوتر" (Tension) الموجود بين الحركة —أو الإشارة— (Gesture) والجملة (Statement) في النص، وتبحث

عن الطرق التي يمكن بها الإجتثاث الضمني للأفكار المصرح بها في النص (تفكيك النص) فما يبدو هامشياً قد يكون جوهرياً.⁽⁴⁰⁾ فالتفكيكية كممارسة نقدية كما يعبر عنها دريدا تفكك النص لتكشف أن ما يبدو عملاً متناسقاً وبلا تناقضات هو بناء من الاستراتيجيات والمناورات البلاغية. إن فصح ذلك البناء ينسف الافتراض بوجود معنى متماسك غير متناقض ومفهوم (يمكن تفسيره بشكل واضح) ويؤكد دريدا أهمية تحطيم كل الجاهز والمؤطر والمشكل والنظامي سواء كان نظرياً، أم ثقافياً، أم مؤسسياً.⁽⁴¹⁾

3- القراءة المزدوجة:

القراءة المزدوجة "Double reading" هي وسيلة جاك دريدا في سعيه لفصح العلاقة بين التأثيرات المستقرة وغير المستقرة في أي نص أو خطاب. فالنصوص حسب ما يراه دريدا ليست متجانسة دائماً، والقراءة المزدوجة أو المضاعفة حسبه هي في جوهرها إستراتيجية مزدوجة تكون "آمنة وعنيفة في وقت واحد"، وهي عملياً تتم عبر إخضاع النص، أو الخطاب أو الإنشاء لقراءتين. الأولى هي تكرار القراءة المهيمنة لمعرفة كيف يحقق النص تماسكه، والثانية لمعرفة التوترات داخل النص⁽⁴²⁾. ويحدد دريدا مطلبه من القراءة المزدوجة بقوله: "ما يهمني في القراءات التي أحاول إقامتها هو ليس النقد في الخارج، وإنما الاستقرار والتموضع في البنية غير المتجانسة للنص، والعتور على توترات، أو تناقضات داخلية، يقرأ النص من خلالها نفسه، ويفكك نفسه [...] أن يفكك النص نفسه فهذا يعني أنه يتبع حركة مرجعية ذاتية حركة نص لا يرجع إلّا إلى نفسه، ولكن هناك في النص قوى متنافرة تأتي لتقويضه وتجزئته".⁽⁴³⁾

4- الجينيالوجيا:

لما درس فوكو العلاقة بين السلطة والمعرفة جادل بأنهما تشكيل متبادل، وأنه لا يمكن أن توجد حقيقة خارج أنظمة الحقيقة، فكيف يكون للتاريخ حقيقة إذا كانت الحقيقة لها تاريخ؟ هذه الإشكالية حسب فوكو تجاوزها ممكن من خلال "المنهج الجينيالوجي Genealogical method"، فهذه المقاربة تساعدنا على كشف كيف أن بعض أنظمة الحقيقة تهيمن على أنظمة أخرى. فالجينيالوجيا حسب فوكو هي "عودة إلى البدايات والتكوينات، هنالك حيث تنبثق الهوية ويتوحد الأنا، فعلى المحلل النفسي أن يعود، إلى

الطفولة ليفهم الراشد، ينجم عن ذلك "الفهم ثم الهدم"، لكن مثل هذا البحث، يتطلب أكثر من مؤرخ عادي، لأن الوثائق تصرخ بالصمت، وتعلو الحقيقة ترسبات كثيرة، من القمع والإخفاء والكبت⁽⁴⁴⁾. فمقاربة الجينيلوجيا تضع ما نقله كشيء طبيعي موضع المساءلة، فهي نمط من التفكير التاريخي الذي يعرض ويسجل أهمية علاقات القوة-المعرفة، أو كما قال رونالد بليكر **Ronald Bleiker** : "الجينيلوجيا تركز على العملية التي من خلالها بنينا جذورا وأعطينا معنى للتمثيلات الخاصة بالماضي، هذه التمثيلات تقود وتوجه بشكل مستمر حياتنا اليومية، وتضع حدودا واضحة لخياراتنا السياسية والاجتماعية". ومن هذا المنطلق يهتم ما بعد الحداثيين بكيفية هيمنة بعض الخطابات على أخرى بطرق محددة جدا. ولهذا يعارضون فكرة السرديات أو الروايات الكبرى⁽⁴⁵⁾.

وعطفا على ما سبق فإن مهمة الجينيلوجيا هي كتابة التواريخ المضادة التي تفصح عمليات الاستثناء والتغطية من خلال إعادة سرد القصة من البداية. وهي تتأسس على فكرة عدم وجود تاريخ واحد كبير، بل العديد من التواريخ المتشابهة والمتفاوتة في إيقاعها وسرعتها وتأثيراتها على تكوين رابطة القوة - المعرفة. وموضوع المعرفة حسب هذه الرؤية يصبح مشروطا بسياق سياسي وتاريخي، ومقيد بمفاهيم وأصناف معينة من المعرفة. وبسبب عدم تجانس السياقات والمواقع المحتملة، فإنه لا يمكن أن يكون هناك منظور واحد يهيمن على جميع المنظورات الأخرى، فليس هناك "حقيقة" في ذاتها، ولكن فقط منظورات متنافسة⁽⁴⁶⁾.

المحور الثاني: ما بعد الحداثة والتنظير للعلاقات الدولية: الإسهامات والانتقادات

على نفس نسق المحور السابق، سيتم في هذا المحور تبويب إسهامات ما بعد الحداثيين الدوليين بين ما هي أنطولوجية، إبستمولوجية أو منهجية، وفي الأخير سنتعرض لأهم الانتقادات التي وجهت لما بعد الحداثة.

أولا: الإسهامات الأنطولوجية

-تأتي في مقدمة إسهامات ما بعد الحداثيين في التنظير للعلاقات الدولية، تلك الإضافات المتميزة في الجانب الأنطولوجي، وذلك من خلال إضافتهم لحقل العلاقات الدولية

مفاهيم جديدة مثل: تحليل الخطاب، التناص، اللغة، القصص الكبرى والصغرى، علاقة القوة بالمعرفة... إلخ.

—أعادت ما بعد الحداثة إدراج العنصر الأخلاقي في العلاقات الدولية. ويعد ذلك انعكاسا منطقيا لنظرية تنفي الموضوعية العلمية وتعتبرها مناورة تكتيكية وسياسية مضللة.⁽⁴⁷⁾

—تعتمد ما بعد الحداثة على تحليل الخطاب و"التناص"، فهي تعتبر أن الخطاب هو المنظار الوحيد لفهم سلوكيات الدول وسياساتها، والتناص كأساس أنطولوجي لفهم الواقع الدولي.⁽⁴⁸⁾

—يعد التناص من المفاهيم التي ارتبطت في الغالب بما بعد الحداثة، وهو يمثل اعتماد النص على النصوص، الكلمات، المفاهيم، الدلالات، الرموز، الاتفاقيات والممارسات غير الواعية السابقة.⁽⁴⁹⁾ فهو بذلك تولد نص واحد من نصوص متعددة، كما أنه يشير إلى تقاطع النصوص وتداخلها ثم الحوار والتفاعل فيما بينها. فعقيدة التناص ترى من خلال دراستها للثالث المكون من: المؤلف، النص والقارئ، بأن المؤلف يموت بمجرد كتابته للنص، بينما تبقى على القارئ مسؤولية تأويله للنص واستيعابه.⁽⁵⁰⁾ وتكريسا لعقيدة التناص، يرى أنصار ما بعد الحداثة الدولية أن استعمال الواقعيين لنصوص **ثوسيدس وميكيا فيلي** من أجل منح الشرعية التاريخية لنظرياتهم على حساب النظريات الأخرى يندرج ضمن ما دعاه **دريدا** بـ "المركزية الخطابية" **logocentric**.⁽⁵¹⁾

—تعد **المركزية الخطابية** من أهم المفاهيم القرينة بتحليل الخطاب والتناص، فهي نمط التفكير الذي يعمل عبر إنتاج انقسامات تصويرية مثل؛ الداخل/الخارج، والرجل/المرأة، والحضور/الغياب، والدولة/المجتمع، والواقعية/المثالية، إلخ. كل انقسام من هذا النوع ليس مجرد معارضة بين مصطلحين بل عادة ما يرى المصطلح الأول للثنائية باعتباره خيارا أمثل ويتم تفضيله على المصطلح الثاني. وحتى يعمل المصطلح الأول ويظهر للوجود، يجب أن يستثنى المصطلح الثاني. فالفوضوية والصراع يصبح لهما معنى وحضور فقط عبر استثناء الهيكلية والتعاون. ومن خلال رفضها لقصص **المركزية الخطابية** التقليدية وجهت بعد الحداثة الدولية نقدا لادعاها لانقسام الواقعي الفوضوية/السيادة الذي يعتبر إحدى العقائد **المركزية** للواقعية، فمفاهيم الأخيرة حول الأمن (المعضلة الأمنية الواقعية) مستندة أساسا على فكرة الدول السيادية التي تتفاعل ضمن بيئة فوضوية. إذ تنتقد بعد الحداثة الدولية وجود

الدولة السيادية ذاته، من خلال رد فرضية الدولة كفاعل وحدوي وبأن هناك إجماع وتوافق كلي ضمن كل دولة محقق إما بالديمقراطية أو الحكم الاستبدادي. فهذا التجانس في البيئة الداخلية الذي لا يكتسب أهمية إلا عندما يوضع في مقابل تعارض المصالح في البيئة الخارجية (ثنائية الداخل/الخارج). وذلك بالضبط ما عابه بعد الحداثيون على الفلسفة الحداثية التي رأوا أنها كانت دائما تتحو إلى رد ما هو متعدد إلى الوحدة. فهذه الفلسفة حسبهم تحجب دائما التناقض على المستوى النظري لتبرز الوحدة والتجانس، وهو ما تبرر به الوضع القائم على الجانب السياسي. فهي بذلك مثلما يقول فيليب مانغ Phillip Mang ، " فلسفة رديفة للمماثل والوحدة والدولة". والواقعية كفلسفة حداثية ، "تدمج" المتعدد : مجموعات المصالح والبيروقراطيات المتنافسة والجماعات الإثنية ضمن الموحد: الدولة (عوضا عن المجتمع) ، والسيادة (عوضا عن الكونية)، والأمن القومي (عوضا عن الأمن المجتمعي أو الفردي).⁽⁵²⁾ -من خلال تموقعها أنطولوجيا ما وراء النظرية فقد كان من أهم إسهامات ما بعد الحداثة الدولية هو تحديها للاتجاهات التقليدية عبر اهتمامها بالأصوات المهمشة والمنسية. وهي الأصوات التي أغفلتها أو تجاهلتها تلك الاتجاهات،⁽⁵³⁾ وقد أدى هذا الإهتمام إلى بروز وتنامي عدة حركات اجتماعية وسياسية ذات مطالب تتعلق بالهوية، هذه الأخيرة التي تعتبر بناء اجتماعيا وأصبحت -لكون أصولها التاريخية ترجع إلى مبادئ وأسس النظام العالمي/ الويستفالي القائم على الدولة /الأمة- واحدة من بين القضايا الأكثر حساسية في السياسة الدولية.⁽⁵⁴⁾

ثانيا: الإسهامات الإيستيمولوجية

يحلينا الحديث عن الإسهامات الإيستيمولوجية لنظرية ما بعد الحداثة إلى المحاورة الثالثة في العلاقات الدولية التي دارت حول ما يسمى المسائل المعرفية، وهي المسائل المتعلقة بكيفية التمكن من معرفة واقع السياسة العالمية. إذ هنالك عدد متزايد من العلماء ممن عرفوا بأنفسهم على أنهم "منشقين dissidents". وأعربوا عن عدم الرضا المتزايد عن الواقعية، الوضعية، ومقتررب مركزية الدولة وهيمنة الذكورية في دراسة العلاقات الدولية، ومن ضمن هؤلاء يعد ما بعد الحداثيين الدوليين من الذين حاولوا إعطاء بديل معرفي ما بعد وضعي فكانت لهم بذلك إسهامات معرفية مميزة.

- عمدت المقاربات لما بعد حداثية إلى محاولة فهم عمليات الإقصاء والاحتواء التي تتم أثناء صياغة المعرفة والمواقف السياسية. فهي تسعى لتحدي واقتلاع أنماط التفكير الراسخة، بحيث يمكننا أن نرى العالم من أكثر من منظور واحد، ويمكن جلب الأصوات المهمشة إلى ميدان الحوار.⁽⁵⁵⁾

-لقد قامت الدراسات بعد الحداثية بإعادة فحص العديد من القضايا التقليدية في العلاقات الدولية، على سبيل المثال؛ الأمن (ديلون 1996 ، ستيرن 2005)، والحرب والعسكرة (دالبي 1990، شابيرو 1997، زيفوس 2002)، والاقتصاد السياسي (دي غاود 2005)، والأخلاق الدولية (كامبيل وشابيرو 1999)؛ والدبلوماسية (دير دريان 1992) ؛ والمؤسسات الدولية (ديبريكس 1999). إضافة إلى هذه المواضيع التقليدية في التخصص ، تناولت الدراسات بعد الحداثية كذلك العديد من المواضيع الجديدة أو "بعد الحداثية" مثل؛ المعارضة الشعبية (بليكر 2000)، والتدخل الإنساني (أوفرود 2003) ، والتنمية (إيسكوبار 1995، فيرغيسون 1994)، وسياسة ما بعد الاستعمار (دوتي 1996)، والمجاعة (إيدكينس 2000) ، والسياسة البيئية (دالبي 2002، كولز 1996 ، بينيت وشالوبكا 1993)، والسياسة الخارجية (كامبيل 1992) ، وفض النزاع (بليكر 2005)، والحدود (شابيرو وآلكر 1996)، واللجوء (سوغاك 1999) ، والقومية (كامبيل 1998، شابيرو 2004) ، والهوية (كونوللي 1991) ، والمواطنة (كرويكشانك 1999).⁽⁵⁶⁾

-يسقط ما بعد الحداثيون التميز التقليدي بين الذات والموضوع، وذلك من خلال ادعائهم بأن الحقيقة ليست شيئاً ثابتاً مكتملاً نسعى فقط لإكتشافه، وإنما ترتبط بوعينا وإدراكنا ووجهات نظرنا، وهي انعكاس لها في ذات الوقت. وكما يعبر لما بعد حداثيون فإنه وفي سبيل بحثنا عن الحقيقة فإننا ننشئ حقائق خاصة بنا، سواء بقصد أو بغيره. وعليه فكل مطالبة بامتلاك حقيقة مؤسسة على الروايات الكبرى أو خلفية النظرة إلى العالم، تحمل في طياتها إقصاء لمطالبات أخرى حول الشيء نفسه.⁽⁵⁷⁾ نستشف ذلك من خلال وصف ليو تار للغة ما بعد الحداثة بقوله إنها "اللغة الكافرة باللغات الوراثة والسرديات الكبرى Grand Narratives".⁽⁵⁸⁾

-استخدم المنظرين الدوليين بعد الحداثيين فكريتي الارتباط بين المعرفة والقوة، وعدم وجود حقيقة مطلقة خارج حدود القوة المنبثقة من أفكار الفيلسوف ميشال فوكو، لدراسة

"حقائق" نظرية العلاقات الدولية وذلك بغرض تبيان أن الأفكار والمفاهيم التي تسيطر على التخصص محددة بعلاقات القوة. وقد استعمل هذا النوع من التحليل في العلاقات الدولية من قبل العديد من المنظرين بعد الحداثيين مثل ريتشارد أشلي في تناوله لما دعاه فوكو "قاعدة اللزوم" بين معرفة الدولة ومعرفة الرجل. وتقصي ديرديران لحدود القوة والمعرفة في العلاقات الدولية، وعمل مايكل رولف ترويو Michel-Rolph Trouillot حول دور القوة في ما دعاه بـ "إسكات الماضي" في إنتاج المعرفة التاريخية، إضافة إلى عمل سيبا غروفوغوي Siba Grovogui حول طقوس القوة الممارسة في إنتاج أخلاقيات الخطاب في العلاقات الدولية.⁽⁵⁹⁾

سياق الحقيقة الدولية عند أنصار ما -
بعد الحداثة الدولية يكمن في القصص المشكّلة لذلك السياق. وهذا ما دفع بعد الحداثيين للمجادلة بأن الواقعيين في العلاقات الدولية اعتمدوا على القصص التاريخية لتشريع نظرياتهم وتأمين موقعهم المهيمن في التخصص. فمركزية الرواية التي أصطنعت لكي يبدو أن الواقعية ذات أساس من الصحة تطعن فيها ما بعد الحداثة من أصلها، وذلك من خلال كشف عيوبها القليلة الواضحة. ⁽⁶⁰⁾ تعود جذور القصة الرئيسية للتقليد الواقعي إلى نسبهم الممتد من ثوسيدس إلى ميكيافيللي ثم هوبز والفلاسفة السياسيون لعصر التنوير. تقدم هذه القصة المصدقية التاريخية للواقعية لكي تبدو أكثر موثوقية. ⁽⁶¹⁾ ولم يكن هدف بعد الحداثيين الدوليين رفض أو إهمال دراسة ثوسيدس أو ميكيافيللي أو هوبز في ذاتهم، لكن بالأحرى كان هدفهم يتمثل في اقتراح قراءة نقدية مختلفة لـ : حرب البيلوبونيز والأمير واللوياثان. فعوضا أن يأخذوا القصة كمعطاة أو يتبنونها من منظار سرد معين للتاريخ، يقوم بعد الحداثيين الدوليين بالشك في أصول ونسب هذه القصة عبر إعادة بناء السياق الذي أنتجت فيه. ⁽⁶²⁾

ثالثا: الإسهامات المنهجية

-تماشيا مع إسهاماتهم الأنطولوجية والإبستمولوجية في التنظير للعلاقات الدولية، وتوافقا مع بنائهم الفكري المتبنى، قدم ما بعد الحداثيون الدوليون إسهاما منهجيا مميزا جدا، وذلك من خلال استخدامهم لمناهج بحث متنوعة وبديلة لمناهج البحث الوضعية، مستمدة في أغلبها من حقول معرفية أخرى غير حقل العلاقات الدولية، وذلك في إطار مطالبتهم

الشديدة بإنفتاح الحقل على التعددية النظرية، الفلسفية الإبيستيمولوجية والمنهجية⁽⁶³⁾. ومن أهم هذه المقاربات المنهجية: التفكيكية، القراءة المزدوجة، الجينالوجيا والتناص.

— على نفس نسق الإسهامين الأنطولوجي والإبيستيمولوجي فقد كان الإسهام المنهجي عبارة عن محاولة لتفريغ المناهج النظرية الوضعية (وفي مقدمتها الواقعية الدولية) من محتواها، حيث قام أنصارها باستخدام تقنية التفكيك المضاد للمناهج، وذلك لأجل تفكيك النصوص والبحث بين سطورها عن النقاط التي يتجاوز فيها النص المعايير التي وضعها لنفسه.⁽⁶⁴⁾ ومن أبرز الذين وظفوا التفكيك، هنالك **جيمس درديران** (في عمله **The**

(Boundaries of Knowledge and Power in International Relations

من خلال تقصي حدود القوة والمعرفة في العلاقات الدولية، **مايكل رولف ترويو Michel** **Rolph Trouillot** في عمله حول دور القوة في ما دعاه بـ "إسكات الماضي" في إنتاج المعرفة التاريخية، بالإضافة إلى **ريتشارد آشلي** في تناوله لما دعاه **فوكو** "قاعدة اللزوم" بين معرفة الدولة ومعرفة الرجل.⁽⁶⁵⁾

— لقد ساهم ما بعد الحداثيين الدوليين عبر استخدام آلية التناص والقراءة المضاعفة في تفكيك بعض المفاهيم السائدة — والتي سوّقت على أن لها معنى واحدا وثابتا — في إظهار كيف أن هذه المفاهيم تحتمل أكثر من قراءة واحدة. ففي مجال النظرية الدولية، أدت مثل هذه القراءة المضاعفة لمفهوم **الفوضى Anarchy** (التي قدمها **ريتشارد آشلي**) — من خلال تقديم قراءة ثانية على الأولى التي كانت طبقا للأدبيات التقليدية للعلاقات الدولية — إلى إظهار كيف أن التعارض الطبيعي بين مفهومي **الفوضى** والسيادة الذي جرى تسويقه في القراءة الأولى هو في الحقيقة تعارض خاطئ.⁽⁶⁶⁾

— في معرض انتقادهم للحداثة، يرفض ما بعد الحداثيون النظام الميتافيزيقي للنظريات التقليدية، والذي يعترفون بأنه نظام فكري لا يمكن مهاجمته وتقويضه، لهذا يجب اجتثاثه من جذوره⁽⁶⁷⁾، ولأجل ذلك لابد من المنهج الجينالوجي، والذي كانت مساهمته متميزة خاصة في نقد رابطة القوة — المعرفة، فالجينالوجيا عند ما بعد الحداثيين هي أسلوب التفكير التاريخي الذي يهدف إلى إعادة تمثيل معين للماضي، والذي يبين ويكشف كيفية تكوين علاقات القوة — المعرفة. فهي بذلك ترفض وجود تاريخ واحد كبير، ولكن ترى بوجود العديد من التواريخ المتشابهة والمتفاوتة في إيقاعها وسرعتها وتأثيراتها على تكوين رابطة القوة — المعرفة.⁽⁶⁸⁾

رابعا: الإنتقادات الموجهة لنظرية ما بعد الحداثة

لقيت نظرية ما بعد الحداثة ممانعة شديدة من طرف النظريات التفسيرية، وفي مقدمتها الواقعية، ولكن أبرز الإنتقادات الموجهة إليها كانت من قبل النقاد الاجتماعيين وفي مقدمتهم هابرماس وتوينبي، ومن أهم هذه الإنتقادات:

- إفراط ما بعد الحداثة في التقويض والهدم للأطر المعرفية التقليدية دونما تقديم بديل علمي وقابل للتطبيق عمليا. فعوضا عن تقديم نظريات قدمت وعودا حول ما قد تبدوا عليه نظرية ما بعد الحداثة عندما تأتي فعلا.

- أفرطت ما بعد الحداثة في الجانب النظري ولم تهتم بدرجة كافية بالعالم الحقيقي، وذلك على الرغم من تأكيد أنصارها على أنه لا يوجد في العالم الاجتماعي ما يسمى بالعالم الحقيقي.

- افتقرت ما بعد الحداثة إلى مرجعية موحدة وسقطت في فخ التعددية المفرطة، مما يجعل العالم الذي يأمله ما بعد الحداثيون مفكك، يفتقد للمنظومات المعرفية والأخلاقية، وتغيب عنه المقاصد والغايات.

- هنالك من شكك في عدم جدية الفكر ما بعد الحداثي في التحرر من قيود الحداثة، ويراه ذات مركزية غربية أوروبية، وتستند إلى فلسفات غربية وترافع لصالح حتمية وعالمية قيمها، رغم أنها كانت تعيب ذلك على الحداثة.⁽⁶⁹⁾ فالإنتعاق الذي هو واحد من الموضوعات الرئيسية لمشروع التنوير (الحداثي) الذي كثيرا ما يزعم النقاد ما بعد الحداثيين بإدانته، هو في الواقع العمود الفقري للعلاقات الدولية ما بعد الحداثة.⁽⁷⁰⁾

- أما الوضعيين -وفي مقدمتهم الواقعيين الجدد- فإنهم يصفون ما بعد الحداثة بأنها أقل تأملية مما تدعيه، وبأنها نظرية يطغى عليها الطابع الفلسفي بشكل أكبر من الطابع الإجرائي، وهو ما يجعل الاستفادة صانع القرار السياسي منها أقل بالمقارنة مع النظريات العقلانية عند اتخاذ قراره.⁽⁷¹⁾

- رغم انتقادهم لإنتقائية الاتجاهات العقلانية وممارساتها الإقصائية، إلا أن الباحثين ما بعد الحداثيين في العلاقات الدولية أيضا يأخذون بشكل انتقائي عن مجموعة من الفلاسفة دون آخرين، ثم يرفضون تقديم أنفسهم على أنهم محدودى الخطاب.⁽⁷²⁾

الخاتمة:

تعد نظرية ما بعد الحداثة من أهم الطروحات البديلة في حقل العلاقات الدولية. فهذه النظرية التي تستند على رؤى فكرية وفلسفية، جلبها روادها من خارج الحقل، عمدت من خلال توظيفها لمناهج تفكيكية مضادة للمناهج إلى محاجة الطروحات التأسيسية - لاسيما الواقعية-، وإبراز مواطن ضعفها. بل أكثر من ذلك، سعى ما بعد الحداثيون الدوليون إلى هدم الحقل المعرفي للعلاقات الدولية برمته، ومن ثم إعادة بنائه، بما يتيح فهما وتفسيرا أفضل لظواهر العلاقات الدولية. فمن خلال المطالبة بأخلقة العلاقات الدولية واهتمامها - عبر إستراتيجيتي التناس وتحويل الخطاب- بالأصوات المهمشة والمنسية وإثارة مسألة الهوية أنطولوجيا، إضافة إلى إسقاط التمييز بين الذات والموضوع وتسليط الضوء على ثنائيتي اللغة-الحقيقة والقوة-المعرفة وفضح الروايات الكبرى إبستمولوجيا، فضلا عن اعتماد التفكير والجينالوجيا منهجيا، حققت ما بعد الحداثة نجاحا ملحوظا، اتضح من خلال إعادة معالجة ما بعد الحداثيين بصبغتهم الخاصة لأغلب وأهم موضوعات العلاقات الدولية.

وعلى الرغم من الإسهامات النظرية على المستويات الثلاث، الأنطولوجية، الإبستمولوجية والميثودولوجية لنظرية ما بعد الحداثة، إلا أن انحصار جهودها في نقد الطروحات النظرية التقليدية -وبخاصة الواقعية-، والعمل على تفويض أسسها المعرفية، قد طغى على محاولة تقديمها لبدائل تنظيرية، وذلك إلى الحد الذي يمكن القول أنه لا توجد نظرية ما بعد حداثة متماسكة في العلاقات الدولية. فانطلاقها من نقد النظرية وانشغالها بالتأمل في عملية التنظير، جعلها تتخندق ما وراء النظرية، فلم تكن بذلك عملية تنظيرية بقدر ما هي نظرية للنظرية، وهذا ما جعل الفكر ما بعد الحداثي عاجزا -كما يصفه منتقدوه- وغير قادر على إنتاج مساهمة بالغة الأهمية في دراسة العلاقات الدولية. فمساهمة ما بعد الحداثيين مقارنة بطموحاتهم ووعودهم تبدو محدودة وضئيلة.

الهوامش:

- (1) - علي وطفة، "مقاربات في مفهومي الحداثة وما بعد الحداثة"، تاريخ التصفح: 11 أبريل 2016، الرابط الإلكتروني: http://www.aljabriabed.net/n43_08watfa.htm
- (2) - إين منظور، لسان العرب، المجلد الثالث، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1955، ص 92.
- (3) - المرجع نفسه، المجلد الثاني، ص 131.
- (4) - ONLINE ETYMOLOGY DICTIONARY, « post- », etymonline.com, (Accessed April, 25, 2016), Available at: http://www.etymonline.com/index.php?allowed_in_frame=0&search=post-
- (5) - ONLINE ETYMOLOGY DICTIONARY, « modernity », etymonline.com, (Accessed April, 25, 2016), Available at: http://www.etymonline.com/index.php?allowed_in_frame=0&search=modernity
- (6) - ONLINE ETYMOLOGY DICTIONARY, « modern », etymonline.com, (Accessed April, 25, 2016), Available at: http://www.etymonline.com/index.php?term=modern&allowed_in_frame=0
- (7) - أياد أحمد عنبر، أكثر من 70 طريقة من طرق الاشتقاق في اللغة الانجليزية، العبيكان للنشر، ط3، الرياض، 2009 ص49.
- (8) - منير البعلبكي، رمزي منير البعلبكي، المورد الحديث: قاموس إنكليزي-عربي حديث، دار العلم للملايين، بيروت، 2008، ص 611.
- (9) - Jasmine Moussa, « Ancient origins, modern actors: defining Arabic meanings of humanitarianism », HPG Working Paper, HPG Humanitarian Policy Group, London, november 2014, p4.
- (10) - منير البعلبكي، رمزي منير البعلبكي، مرجع سبق ذكره، ص 735.
- (11) - محمد جديدي، "الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريشارد رورتي"، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في الفلسفة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية، جامعة منتوري قسطينة، 2006، ص 122.
- (12) - جمال درويش، "الدولة والمجتمع في مرحلة ما بعد الحداثة"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تخصص التنظيم السياسي والإداري، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، 2008، ص 14.
- (13) - جمال درويش، مرجع سبق ذكره، ص 14.

- (14) - المرجع نفسه، ص 15.
- (15) - محمد جديدي ، مرجع سبق ذكره، ص 127.
- (16) - Roland Bleiker, "Postmodernism", in: Richard Devetak, Anthony Burke and Jim George, An Introduction to International Relations, 2nd ed, Cambridge University Press, New York, 2012, P97.
- (17) - محمد الطاهر عديلة، "تطور الحقل النظري للعلاقات الدولية: دراسة في المنطلقات والأسس"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، فرع العلاقات الدولية، قسم العلوم السياسية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة لخضر باتنة، 2015، ص 290.
- (18) - Elnur Hasan MIKAIL, "the theory of postmodernism as a contemporary International relations theory", TURAN-SAM * YIL: 2010 * CILT: 2 * SAYI: 7 * YAZ 2010, P 143.
- (19) - علي وطفة، مرجع سبق ذكره.
- (20) - Richard Devetak , "Postmodernism", In : Scott Burchill et Al, Theories of International Relations, 3rd ed, Palgrave Macmillan, London, 2005, P 161.
- (21) - سيد أحمد قوجيلي، الدراسات الأمنية النقدية: مقاربات جديدة لإعادة تعريف الأمن، المركز العلمي للدراسات السياسية، عمان، 2014، ص 43.
- (22) - محمد الطاهر عديلة، مرجع سبق ذكره، ص 291.
- (23) - جمال دريوش، مرجع سبق ذكره، ص 20.
- (24) - سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص 45.
- (25) - محمد الطاهر عديلة، مرجع سبق ذكره، ص 298.
- (26) - المرجع نفسه، ص 296.
- (27) - عبد الناصر جندلي، التنظير في العلاقات الدولية بين الاتجاهات التفسيرية والنظريات التكوينية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 332.
- (28) - سالم يفوت، المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1999، ص 24.
- (29) - ليندا هتشيون، سياسة ما بعد الحداثة، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص 29.
- (30) - سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص 47.
- (31) - عبد الناصر جندلي، مرجع سبق ذكره، ص 333.
- (32) - Felipe Krause Dornelles, "Postmodernism and IR: From Disparate Critiques to a Coherent Theory of Global Politics", Global Politics Network, (Spring 2002), p 7.

(33) – Felipe Krause Dornelles, Opcit, p7.

(34) – سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص، ص، 50، 51.

(35) – المرجع نفسه، ص 51.

(36) – سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص، ص، 52، 53.

* تيل كيل Tel Quel مجلة علمية تأسست سنة 1960 على يد مجموعة من المؤلفين، في مقدمتهم جين إدرن هاليي Jean-Edern Hallier، جوليا كريستيفا Julia Kristeva، ميشيل فوكو Michel Foucault، رولاند بارت Roland Barthes، جاك دريدا Jacques Derrida وفيليب سولرس Philippe Sollers الذي ترأس إدارة المجلة.

(37) – بيبير مارك دوبيازي، "نظرية التواصل"، ترجمة: المختار حسني، على الرابط الإلكتروني:

http://www.aljabriabed.net/n28_09hasani.htm

(38) – عادل بوحوت، "التواصل وإنتاجية المعاني (أعلام ونماذج)"، موقع فيلوپريس الإلكتروني، على الرابط:

http://www.philopress.net/2014/02/blog-post_25.html

(39) – محمد الطاهر عديلة، مرجع سبق ذكره، ص 301.

(40) – ليندا هتشيون، مرجع سبق ذكره، ص 23.

(41) – فاطيمة زهرة سماعيل، "القراءة التفكيكية"، عود الند، العدد 79، جانفي 2013، على الرابط الإلكتروني:

<http://www.oudnad.net/spip.php?article644>

(42) – Richard Devetak, OpCit, P168.

(43) – المرجع نفسه.

(44) – عطار أحمد، "تجديد العقل الأنثوي عند يورغن هابرماس: قراءة نقدية للإيدولوجيا اللبرالية المعاصرة"، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2010، 2011، ص 135.

(45) – محمد الطاهر عديلة، مرجع سبق ذكره، ص 300.

(46) – سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص 48.

(47) – Felipe Krause Dornelles, Opcit, p16.

(48) – جويده حمزاوي، "التصور الأمني الأوروبي: نحو بنية أمنية شاملة وهوية استراتيجية في المتوسط"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية، تخصص: دراسات مغربية ومتوسطية في التعاون والأمن، قسم العلوم السياسية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2010-2011، ص 38.

(49) – Adolphe Haberer, "INTERTEXTUALITY IN THEORY AND PRACTICE", LITERATÛRA, 49(5), 2007, 61.

(50) – عبد الناصر جندلي، مرجع سبق ذكره، ص 331.

- (51) - سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص، 52 .
- (52) - سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص، 52، 53.
- (53) - عبد الناصر جندلي، مرجع سبق ذكره، ص 334.
- (54) - جويده حمزاوي، مرجع سبق ذكره، ص 38.
- (55) - Roland Bleiker, OP.CIT, P97.
- (56) - سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص، 44، 45.
- (57) - محمد الطاهر عديلة، مرجع سبق ذكره، ص 296.
- (58) - ليندا هتشيون، مرجع سبق ذكره، ص 20.
- (59) - سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص، 47، 48.
- (60) - Felipe Krause Dornelles, Op.Cit, p7.
- (61) - سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص 50.
- (62) - سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص، 50، 51.
- (63) - محمد الطاهر عديلة، مرجع سبق ذكره، ص 303.
- (64) - عبد الناصر جندلي، مرجع سبق ذكره، ص 334.
- (65) - سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص 47.
- (66) - محمد الطاهر عديلة، مرجع سبق ذكره، ص 303.
- (67) - عطار أحمد، مرجع سبق ذكره، ص 125.
- (68) - سيد أحمد قوجيلي، مرجع سبق ذكره، ص 48.
- (69) - محمد الطاهر عديلة، مرجع سبق ذكره، ص 306.
- (70) - Felipe Krause Dornelles, Opcit, p16.
- (71) - وصفي محمد عقيل، "التحولات المعرفية للواقعية والبرالية في نظرية العلاقات الدولية المعاصرة"، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 42، العدد 1، 2015، ص 108.
- (72) - Felipe Krause Dornelles, Opcit, p16.